المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الحادي والسبعين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩٢٧ — الموافق ٣ صفر سنة ١٣٤٦

الدكتور يعقوب صروف

مرضهُ الاخير ووفاتهُ

دخلنا على المرحوم الدكتور صرُّوف في مكتبهِ صباح السبت في ٢ يوليو الماضي وجلسنا نتحدث اليهِ في شؤون المقتطف وهو ينظر فيها بفكر نافذ ورأي صائب ويقول افعلوا كذا او افعلوا كذا . ثم وقف قليلاً وتنهد وقال « انا غير مخلدين ولا بدَّ لكم من ان تتعهدوا العمل بعنايتكم وتسيروا على الخطة التي رسمناها من حيث المبادئ والاركان . انتم شبان تجري في عروقكم دماء النهوة فجدّدوا وانهضوا وسيروا الى الامام . نحن ذاهبون ان لم يكن اليوم فغداً او بعد غدٍ . بالامس كنت اطالع في مكتبي فشعرت بضيق في النفس واحسست ان روحي تكاد تزهق من بين جنبي ولكني والحمد لله احسن هذا الصباح »

كان هذا آخر كلام فاه بهِ على مسمعنا في مكتبهِ ، فكأنهُ كان ينعى نفسهُ قبل وفاتهِ باسبوع كامل ، فتجلى لهُ العمل العظيم الذي ما فتئ ينفق الليالي والايام في تعهدهِ والعناية بهِ ، واتجهت افكارهُ الى ما يكون مصيرهُ من بعدهِ فكانت كلماتهُ الاخيرة في مكتبهِ تدور حول القيام على السير بهِ في المستقبل الى الغايات الرفيعة التي كان يتوخاها لهُ من دقة في البحث ونزاهة في القياس والحكم وفائدة عامة للجمهور

وفي اليوم التالي في ٣ يوليو غادر العاصمة ذاهباً الى الفيوم فقام من محطة العاصمة في قطار الساعة السادسة صباحاً ووصل الى الفيوم في نحو الساعة العاشرة ، وكان الحرّ شديداً يزهق النفوس ، وكانت الرطوبة على درجة عالية تثقل الصدور ، على انهُ لم يبالِ

باحوال الجوّ ، بل كان ينظر اليها نظرهُ الى كل انواع المصاعب ، حوائل يجب ان تتصدى لها وان تخطاها بما فينا من قوة وعزم ، واننا بتصدينا لها وبتخطيها نزداد قوة وعزماً ، فلم يشنق على العلم الناصح والخلق الكريم ولم يوسم خمساً وسبعين سنة كان يحملها في جلال ووقار منتصب القامة ثابت الخطى باسم الثغر لامع العينين ، فجال في اطيانهِ جولة يحجم عنها الشاب وعاد الى دارهِ فيها وهو على غير حالهِ الاولى من الصحة والقوة والنشاط

وفي صباح الثلاثاء جاءتنا منهُ برقية يقول فيها انهُ قادم وانهُ يصل الى محطة العاصمة في الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين ، فارسلنا اليهِ سيارتهُ لتستقبلهُ فيها ، ولكنهُ كان في هذه الاوبة على خلاف عادتهِ معتمداً على ذراع وكيل زراعتهِ لان الحمى كانت تثقل خطاهُ والاصابة في احدى الرئتين تضيق نفسهُ وهو الذي كان يرفض ان يعتمد على احد في قضاء عمل يستطيع ان يقضيهُ بنفسهِ ، فوصل الى البيت ولزم السرير

عدتهُ في المساء ، فاذا هو رغم الحمى وضيق التنفس ، يرفض ان يعينهُ احد في القيام بشؤونهِ الخاصة ، ووجدتهُ في تلك الليلة ونحن متفائلون بانهُ سينام نوماً هنيئاً ويصحو في الصباح وقد تقدم تقدماً محسوساً نحو الصحة والنشاط ولا يلبث ان يعود الى عملهِ بما عهد فيهِ من الهمة التي تخجل الشبان . ولكن اصابتهُ بذات الرئة في السنة الماضية تركت قلبهُ ضعيفاً بعض الضعف ، وجاء انتقالهُ من القبوم الى القاهرة في جوّ حارّ مشبع بالرطوبة وفي قطار دائم الارتجاج والاهتزاز وهو محموم مريض ضغطاً على ابالة . فازداد عمل القلب زيادة حملتهُ فوق ما يستطيع وتأثرت الكليتان فرفضتا ان تقوما بعملهما ، وتجمعت السموم الناجمة عن الحمى في الدم ولا سبيل لها الاَّ الانفراز عن طريق الكليتين ، فحاول نطس الاطباء ان يعينوا هذه الاعضاء الرئيسية حتى تقوم بوظائفها قياماً طبيعياً فضاعت حيلهم واسلم الروح قبيل منتصف الليل في ٩ يوليو الماضي . فذهب مبكيًا بعلمهِ وفضلهِ ، وانهدّ بوفاتهِ ركن من الاركان المتينة التي قامت عليها النهضة الفكرية الحديثة في الشرق العربي

***

بقي الى الساعة الاخيرة صافي الذهن ، حاضر البديهة ، آنا يناقش الاطباء والممرضات وآنا يرفض ما يعنونهُ لهُ من وسائل العلاج لانها لا توافق رأيهُ في شؤون الصحة وقواعد الطب ووسائل العلاج ، ثم يذهن خاشعاً متململاً ، لان للاطباء في ساعات

المرض سلطة يجب ان يذعن لها ، ولان لاهله حقوقاً عليه يجب ان يرعاها ، بل لان للانسانية عليه حقوقاً اكبر من حقوق اهله واعم ، وهو الرجل الذي وهب نفسهُ للانسانية منذ انتظم في سلك التعليم في مدرسة صيداء الاميركية من سبعة وخمسين عاماً

وكنا في الليلة السابقة لوفاته نبحث عن مجلة اعطيناهُ اياها قبيل سفره الى الفيوم ليطالع فيها مقالاً طريفاً يدور على « القوى المخزونة في الجواهر الفردة » فلم نعثر عليها ، فتقدمنا الى قريته الفاضلة بالسؤال «ترى هل اخذ هذه المجلة معهُ الى الفيوم ليطالع فيها في اثناء السفر وساعات الفراغ من العمل فنسيها هناك » فقالت كلاَّ انهُ لم يأخذها معهُ ، ولم تلبث ان دخلت عليه في غرفته ، والممرضة ترعاهُ بعنايتها ، وجميع اعضائه الرئيسية في حالة تعب شديد ، وسألتهُ عن المجلة فكان سؤالها اياهُ عن امر يتعلق بالمقتطف حرّك كل قواهُ الحيوية ونبّه فيه الهمة والعزيمة فدلها على مكانها بالتدقيق وقال لها « في المجلة مقالة شرعت في كتابتها للمقتطف وكتبت منها نحو صفحتين ونصف صفحة ، دعي « فؤاد » (وهو كاتب هذه السطور) يكملها و ينشرها في الجزء القادم من المقتطف » . كان ذلك قبل وفاته باربع وعشرين ساعة

هل رأيتم جهاداً اكمل من هذا الجهاد ! وعناية بالعمل اتمّ من هذه العناية ! اننا لو جرّدنا عملهُ في انشاء المقتطف وتحريره مدة واحد وخمسين عاماً وثلاثة اشهر من كل قيمة ذاتية ، ومن كل اثر في خلق النهضة الفكرية وتسييرها ، لكفاهُ مجداً وعظمة انهُ ثبت في العمل ، ثبات الجبال من حين وضع يدهُ على المحراث سنة ١٨٧٦ الى بضع ساعات قبيل وفاته . فلنتعظ نحن ابناء الحياة !

***

لقد جفّ القلم السيّال الذي نقب وحقق وحبر سبعين مجلداً ضخماً ، تمتد مباحثها من ادنى الاحياء التي تعجز اقوى المكرسكوبات عن رؤيتها الى السدم التي لا تجتازها اشعة النور الا في مئات الالوف من سني النور وتناول فيها مشاكل الحياة والموت وما بعد الموت بنظر نافذ وعقل راجح وحكم حذور

لقد سكنت اليد التي حملت مشعل النهضة الفكرية في الشرق العربي مدى سبعة وخمسين عاماً

لقد خفت الصوت الحنون ، الذي كان يرشد بغير تأنيب و ينتقد بغير تحامل

وبسط وينصل بغير ادعاء ويصل الى غايته من تهذيب وتثقيف واصلاح بتودة ولطف وظرف نيتة

لقد خمد ذلك القلب الفياض بانبل العواطف واشرف السجايا

لقد هدأت الدورة الحيوية في ذلك الدماغ الجوّال الذي كان كالمنارة ، يجلو بانوارهِ الباهرة دياجي المشكلات العقلية

***

كان عميد المقتطف فذًّا بين افذاذ الامم لانهُ جمع الى مزايا العقل المتفوق سجايا الروح النبيلة والخلق الكريم. فاذا نحن تبجعنا لفقدهِ فانما نتفجع لفقد رجل كانت حياتهُ صفحة ذهبية من صفحات التاريخ كل سطرٍ من سطورها بل كل حرف من حروفها يتلألأ علمًا وفضلاً ونبلاً

واذا كان عظام الرجال يتسمون الى رجال لهم قيمة ذاتية تظهر في كتاباتهم وتعاليمهم وقلما تتغير بتغيّر الازمنة والامكنة سواء عرف معاصروهم قدرهم او جهلوهُ كسقراط وافلاطون وديكارت و باستور ، والى رجال قيمتهم قائمة بحاجة بلادهم اليهم او بالنفع الذي يتالها منهم مثل نبوليون ووشنطون ومحمد علي ، فلفقيد المقتطف فخر الجمع بين مزايا الفريقين. ان كتاباتهِ وتعاليمهُ خالدة في بطون مجلدات سبعين ، والفائدة التي جناها الشرق العربي من هذه الكتابات والتعاليم لا ينكر قيمتها منكر لان المقتطف كان ولا يزال في طليعة النهضة الفكرية التي تخوض غمراتها الآن

سبعون مجلداً من المقتطف حافلة بالمباحث الطريفة زاخرة بالحقائق الجديدة فياضة بالعظات البليغة والمعاني الخالدة ، تنبض كل صفحة من صفحاتها التي تربي على خمسين الفًا بدقة في البحث والاستقصاء وقوة في القياس والاستنتاج وعناية وبساطة في التحليل والايراد ، وقبل في القصد وبلاغة في البيان وصراحة في الحق وصلابة على الباطل وثبات في اعلاء لواء العلم والفضيلة ورسوخ في مكافحة الجهل والرذيلة — كل ذلك في هدوء العالم ودعة الفيلسوف واندفاع المؤمن — هي بعض ما ابقاهُ الدكتور يعقوب صرّوف ، عميد المقتطف بالامس وفقيدهُ اليوم ، لوارثيهِ في العمل ولقارئيهِ في انحاء الارض

وما اودي امرئٌ اودى وابقى لوارثهِ مكارم لا تبيدُ

نوّاد صرّوف